صخر حبش خالد في الضمائر

بقلم: عدلي صادق

ووري صخر حبش، ثرى الأرض التي اختارها مُقاماً أخيراً، حباً وطواعية، وترفعاً عن السياسة، بل تعالياً على إحباطات الواقع، أو عن مقتضيات المرور الجارح، من الوطن واليه. فقد تمسك أبو نزار بمقامه الأخير، بأشد مما يتمسك الآخرون بمنافيهم، وآثر أن يكون قبره في ثرى وطنه، بعد رحلة عمر، لم يتوقف فيها المناضل القيادي المُبدع، عن انهماره المحبب، كتابة وشعراً، وتجوالاً مُنهكاً، ومنافحة عن فلسطين، شقيقة روحه، ومعبدها وملاذها!

كثيرون هم الذين تأملوا ظاهرة صخر حبش، منذ الشهور الأولى من التغريبة الفلسطينية، أو بعد أن حطت القيادة، الرحال في تونس. فكلما تداعت السياسة، وذهبت بنا مقاربات التسوية، الى حواف الخطر والخديعة وانكشاف العورات؛ كان أبو نزار يبتعد ليسكن في هيكل الكلمة والرؤية المتأنية، حتى بات كمن يتفرد برسوليته، أو يُنزّه نفسه عن التُرهات، كالناسكين وخُدام فكرة الحق والإيمان. نأى الرجل عن كل إسفاف، واختار الاشتغال الدؤوب، منحنياً على سندان الكلام، ممسكاً بمطرقته لكي ينبه الى أمر، كلما علا الضجيج. هناك، في صومعته، لم يكن الراحل يكترث، بالراهن أو بالحشرجات اليومية لنشرات الأخبار، قدر اهتمامه بالتوافر على آراء ذات أبعاد رؤيوية، وأشعار أو أقوال، ذات مضامين جمالية وإنسانية، تنسّل بها خيوط الواقع الفلسطيني، وجزيئات صور وسحنات وأسماء، علقت ـ للأسف ـ بهياكل العمل الوطني، فأثقلتها بشوائب المتسلقين والانتهازيين، والمؤلفة قلوبهم. غير أن صخر حبش المهذب المُترفق في العادة، بمن يأتي ذكرهم على لسانه، جواباً عن استفسار أو عرضاً لرؤية؛ لم يجد سوى الدعابة أسلوباً للنظم باللغة المحكية، لكي ينوّه مضطراً الى مخاطر متعهدي التسوية الكذوبة، والأرزقيين، وممتصي عافية الناس، في مدونته أو زجليته الشهيرة: "لازم تزبط"!

* * *

عاش صخر حبش، مشحوناً بطاقة عمل مذهلة، على طريق المقاومة واستنبات الأمل وتثمين الحياة. كان في موضع احترام المناضلين، طوال عقود كانت بالنسبة له، صراعاً مفتوحاً من أجل نمط من انتاج الرؤى السياسية الحصيفة، ومن أجل نمط من البقاء الكفاحي، لا تغيب عنه سجايا النظافة، والزهد، والجدية، والتحرر من غريزة القطيع، والتمسك بالعقل النقدي، الذي يفرّق بين العام والخاص ويعرف كيف يفصل بينهما!

لقد غادر دنيانا رجل قيادي محترم، ترك ذكراه العطرة لكي تظل في موضع اقتداء الفتحاويين. التحق بالثورة مؤهلاً ذا مستوى رفيع، عندما كان الالتحاق بها مغرماً لا مغنماً. فهو الذي كان بمقدوره أن يرتاد آفاق تخصصه العلمي، ومنصبه المهم في الأردن، وأن يترقى على سُلم السلطة، وأن يحقق مجداً شخصياً. لكنه التحق بالثورة عن قناعة وباستعداد للتضحية. ظل مولعاً طوال حياته بالبزة الأقرب للسمات العسكرية، أو بسفاري قادة ثورات الأدغال. لم يره أحد ببدلة جوخ وربطة حرير، أو بتلك الهيئة التي يسهل على وضيع، أن يقتنص سماتها، لكي يتمثل هيئة الشخصية المهمة، الطبيعية والميسورة والمؤهلة!

يضطجع أبو نزار، الآن، في قبره، بعد أن قال كثيراً وصمت طويلاً واستعاض عن ركاكة السياسة بالكبرياء والشجن. ستتحول حنجرته الى رماد، لكن صوته سيظل يشغل الحيّز الذي يليق به، في الأسماع والضمائر، نقياً واضحاً، كأغنية محملّة بأجمل الأمنيات!

3 تشرين ثاني 2009